العلم باللغة العربية ضرورة عقيدية؛
لمحات علمية عن مكانة اللغة في الدين

Zed Bin Smer

Dosen Tetap Jurusan Bahasa dan Sastra Arab,
Fakultas Humaniora dan Budaya, Universitas Islam Negeri (UIN) Malang.
Jalan Gajayana No. 50 Telepon (0341) 570872, Faksimile (0341) 570872 Malang 65144

Abstrak

Bahasa adalah alat komunikasi yang digunakan manusia untuk berinteraksi dengan sesamanya. Bahasa juga digunakan sebagai sarana pembawa risalah samawi. Islam datang kepada umat manusia dengan menggunakan bahasa Arab. Bahasa Arab adalah bahasa agama, maka untuk mengkaji Islam secara mendalam sangat dibutuhkan pengetahuan tentang bahasa Arab. Banyak tantangan yang dihadapi oleh bahasa Arab dalam sejarah perjalanannya, namun ia tetap tegar dan sekaligus mampu membuktikan akan eksistensinya sebagai bahasa wahyu. Dengan mengkaji beberapa leteratur klasik dan modern yang tertuang dalam tulisan ini, diharapkan kita akan mengetahui eksistensi bahasa Arab dan sejarah perjalanannya dengan berbagai rintangan yang dihadapi serta urgensinya.Dari tulisan ini didapatkan bahwa bahasa Arab ternyata tidak sebatas bahasa wahyu, namun juga bahasa politik, budaya, ekonomi dan bahasa ilmu pengetahuan yang layak untuk dikaji.

Kata Kunci

Eksistensi Bahasa Arab, Agama, Modern, Klasik

مقدمة

وضعت اللغات لدى شعوب الأرض لإقدارها على التفاهم والتواصل وحملت اللغات رسالات السماء إلي الأرض، وتمكن الخلق بواسطتها من تنظيم فكره وتطويره.

واللغة العربية حملت آخر تلك الرسالات وأريد لها أن تكون لسان الوحي، وتستوعب دليل نبوة الإسلام، وتلخص مضامين الرسالات السابقة وتنطوي على المنهج الذي ارتضاه الله لخلقه إلي يوم الدين، أي أن الوحي جاء على شكل نص لغوي تميز بمنهج في التعبير تصح به الحياة علي الأرض إلي نهاية عالمنا هذا.

وإذا تتبعنا كتب اللغة والأدب، وجدنا أن هذه اللغة تواجه تحديات كثيرة، ومع ذلك تستطيع أن تقوم واضحة وصامدة أمام تلك التحديات. وهذا مما يدل على صلاحيتها لتكون لغة الرسالة.

تحديات واختبارات

تعرضت اللغة العربية في مسار تطورها العام لتحديات واختبارات لم يتعرض لها غيرها من لغات شعوب الأرض في التاريخ الإنساني. لقد واجهت اللغة العربية تحديات، تحددت بها قدراتها على التبليغ والتفاعل مع الوجود المادي والروحي للإنسان حتى استطاعت أن تكون لغة حضارة.

الاختبار الأول: أول تحد للغة العربية في تاريخها هو اصطفاؤها أن يناط بها الإعجاز، أن تقوم دليلا على آخر رسالات السماء. فحين بلغت هذه اللغة أوج عنفوانها لدى أمة تميزت بين شعوب الأرض بالقدرة على الإفصاح عن مكنون الحق في الوجود، تعرضت لامتحان الوحي. هل يمكن أن يتنزل بها نص يتضمن منهجا إلهيا ويكون خطابا موجها لكافة شعوب الأرض يخترق الزمان والمكان ويستجيب لكل ما يجد من ظواهر وتحولات؟ وفي هذا قال السيد أحمد خليل: "وبذلك كان القرآن حدثا ضخما في تحويل حياة اللغة وتوجيهها إلى أن تكون لغة فكر يخطط لمستقبل هذه الحياة" (خليل، 1968: 21).

الاختبار الثاني: أن تحل محل اللغات القديمة في وقت وجيز، حتى تدخل تلك اللغات متاحف التاريخ، فقد عايشت العربية أكبر انصهار بين الأجناس في التاريخ، وعانت من أشكال الغربة والعجمة واللحن، لكنها صمدت في وجه التحولات ورافقتها خدمة العلماء في تنقيتها وتقويم ألسنة الناطقين بها، فكانت لغة العلم بدون منازع في الأرض التي عرفتها الحضارات القديمة.

الاختبار الثالث: تحملها لترجمة ما تراكم من المعارف الإنسانية التي كانت تطلبها الدولة الإسلامية لاستكمال نهضتها. فتم نقل تلك المعارف وتم شرحها واختصارها بما تستلزمه من مصطلحات وكان هضمها والتفاعل معها، وتوجيهها وجهة تستجيب للضوابط الحضارية للأمة الإسلامية.

الاختبار الرابع: مع مطالع القرن الهجري الرابع سادت اللهجات في العالم العربي والإسلامي وبدأت السليقة العربية تخفت وتتوارى، وعجز اللسان العربي عن مواكبة المعاناة اليومية، وأصبحت العربية تتعلم تعلما تعيش في معاقل العلم الذي أصبح بدوره يؤخذ من الصحف وزاحمتها الفارسية في القرن الرابع، لكن العربية ظلت لغة الثقافة والعلم محافظة على إشراقها وإشعاعها.

الاختبار الخامس: بعد الهجمتين المغولي والصليبية على معاقل الثقافة الإسلامية، حاولت اللغة التركية أن تسود في تلك المعاقل ثم تلتها الصدامات مع لغة المستعمرين، ومع ذلك كان للعربية انبعاث وإن تقاعس أهلها وذهبت ريحها وأصبحوا من المستضعفين في الأرض. فامتحنت العربية بدعوات التجديد وخاضت غمار الترجمات من بعض اللغات وامتحنت بتعدد المصطلحات من العلوم والمعارف الحديثة وكل ذلك في لحظات تخنقها اللهجات الممزوجة باللغات الأوربية.

اعتماد البيان في خدمة الحضارة الإسلامية

القرآن وحي إلهي، منهج ينظم حركة الحياة منذ ظهور الإسلام في جزيرة العرب إلي نهاية هذا العالم، منه ومن النص الحديثي تستلهم أسس النظر في الألوهية والكون والأوضاع البشرية على الأرض. منهج يوجه النزوع البشري على الأرض ويتجاوب مع حاجات الإنسان المادية والمعنوية، وله قدرة على التجدد والصمود أمام التحولات وتميز بانفتاحه على كل مصدر للمعرفة لا يتعارض مع مقاصده.

والمنهج خطاب لغوي محروس بمعجزة بيانية. يقوم على دعامتين: لغة وفكر. ذلك أن حضارة الإسلام تقوم على دين معجزته في طريقة تبليغه، أي أنيط بالنص القرآني أن يستدل به على المعجزة وأن يقوم دليلا على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يحمل فحوى مقاصد الرسالة، ولا يمكن إدراك هذه المقاصد إلا بفهم خطاب الرسالة، أي في ضوء أسرار العربية وطرائقها في البيان.

كيف يتجدد نص لغوي في حياة البشر على الأرض ويواكب خطرات العقل ويتعايش مع الأهواء والإيديولوجيات؟ لابد لهذا النص من خصائص تضمن له الخلود والتجدد. خصائص تذكر دوما بمصدره، تجعل منه منبعا ثرا "متلو لا يمل على طول التلاوة –كما يقول ابن قتيبة– ومسموعا لا تمجه الآذان، وغضا لا يخلق على كثرة الرد وعجيبا لا تنقضي عجائبه ومفيدا لا تنقطع فوائده (قتيبة، 1973: 3).

ومن هنا تقرر لدي علماء الإسلام أن فهم الرسالة عقيدة وشريعة يحتاج إلى فقه أداة الخطاب يمكن المخاطب من إدراك حقائق التنزيل والوقوف على أسراره ودلائل إعجازه.

ولما كان الإعجاز يبقى في القرآن ببقاء النص، ضمنت العربية لنفسها الخلود وأضحت محط اهتمام المسلمين يعملون على جمعها وتدوينها وتنقيتها من الشوائب وترسيخها والدفاع عنها، فأصبحت علما قائما بذاته له أسسه وضوابطه. فلم يعد العلم بالعربية أداة للثقافة بل أصبح جوهر الثقافة.

العلم بالعربية أساس الثقافة في الإسلام

أثار القرآن منذ اللحظات الأولى لنزوله حركة فكرية عند العرب، خاصة حين دعاهم إلي تدبره فقال تعالى: أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها، محمد 24.

ونجد موقفين من القرآن :

الأول: موقف طائفة اطمأنت إلي القرآن وخلت إليه تترجم تعاليمه سلوكا بعد أن أدركت سموه، وأخذت بروعته وفاضت نفوسها خشية ورهبة، "وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا" (الأنفال: 2)، "وإذا سمعوا ما أنزل إلي الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق" (المائدة: 83). ويعجب القرآن من أناس تبلدت مشاعرهم فلم تأخذهم للقرآن روعة قال تعالى: " فما لهم لا يؤمنون وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون" (الإنشقاق: 20-21)

والثاني: وموقف طائفة كفار قريش استكبرت على الإذعان لمفعول القرآن في النفوس وتحيرت في وصفه، فكشفت أقوالها عما استشعرته من جمال القرآن وأحسنت وصف نفسها حين قالت: "وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون" (فصلت: 5).

وافترى المشركون أقوالا لتفسير ظاهرة الوحي لا تختلف عن أقوال المستشرقين في العصور الحديثة بردها إلي الأساطير والشعر والكهانة والسحر. وحرصوا أن يصدوا الناس عن سماع الوحي، تيقنا منهم أن هذا الكلام يفرض إعجازه على كل من سمعه. قال الله تعالى: "وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون" (فصلت: 26).

وكلما ابتعدنا عن صدر الإسلام عظم الاتصال بالأعاجم وبدأت رحلة النص القرآني في أكناف الأرض لدى شعوب دخلت فيها الملل والنحل القديمة، وامتدت العجمة إلي لسان الناطقين بالعربية، وسعت الشعوب الداخلة في الإسلام إلي تعلم لغة القرآن حتى تتعرف أحكام الدين الجديد.

فأصبح النص محط أفهام شعوب وريثة للحضارات القديمة، يحتكم في كل ماجد، ويستبين في تبني الآراء واتخاذ المواقف. بل أن حرب العقيدة قد اشتعلت طعنا وتشكيكا في القرآن. فاتجهت العناية إلي تقريب النص من الأفهام، ونشأت العلوم العربية مرتبطة به ارتباطا وثيقا فازدهرت الدراسات اللغوية عناية بالنص القرآني أداء وفهما، وإثباتا للهوية الإسلامية في محيط اختلط فيه ديانات السماء بديانات الأرض. وبرز في التيار اللغوي في تفسير القرآن في

اتجاه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، حين ربط بين القرآن ومعرفته بالعربية وخصائصها وأساليبها في الشعر (الأنباري، 1976: 101).

وبامتداد الفتوحات في أرض الشعب العربي، دعت الحاجة على تقريب معاني القرآن من الأذهان، فانطلقت حركة التأليف حول النص القرآني للكشف عن علومه ومعانيه وغريبه والتنقيب عن أنماط أسلوبه. وتم التركيز في أوج مرحلة التدوين على إثبات عربية القرآن مع مقابلة ذلك بما تعارف عليه العرب مع حاجة العصر إلى إشباع رغبة السائلين عن معاني القرآن.

وواضح أن حركة التأليف حول القرآن كان الباعث عليها هو الكشف عما استشكله الناس من معاني القرآن. وملاحقة المعنى كانت وراء نشأة العلوم في الإسلام، كما هو واضح في النحو والتفسير وأصول الفقه وعلم الكلام. والمكتبة القرآنية في فهرست ابن النديم بلغت حوالي مائتين وأربعة وأربعين كتابا.

وإذا كان علماء العربية قد حثوا على تعلم العربية خلال مرحلة التدوين، فإن الإمام الشافعي (204 هـ) اعتبر تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين، والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه كما يقول (الشافعي، دون سنة: 50).

وبين أن الله خاطب بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها. وحدد الإمام الشافعي بعض وجوه الخطاب التي بجهلها يقع الاضطراب في فهم النص وتأويله، ودعا إلى الاحتكام إلى منطق اللغة. لأن كما يقول الشافعي "لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه وجماع معانيه وتفرقها. ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها" (الشافعي، دون سنة: 50).

وأكد الشافعي أن القرآن لم ينزل إلا على مصطلح العرب في المحاورة والتخاطب والاحتجاج والاستدلال. فالشافعي يتحدث عن فهم النص فهما لغويا مهتديا بطرائق اللغة في التعبير.

وتقررت هذه الحقيقة عند معاصريه وعند من جاء بعدهم. خاصة وأن المرحلة طبعها الجدل وعلم الكلام والطعن على أسلوب القرآن وتسرب أعداء الإسلام من باب المجاز جهلا منهم بأنماط التجوز في التعبير العربي. وقد ذكر الجاحظ (255 هـ) نماذج من طعون الملحدين وممن لا علم لهم بوجوه اللغة وتوسع العرب فيها، من ذلك قولهم في آية من سورة النحل: "يخرج من بطونها شراب" قالوا: العسل ليس بشراب، إنما هو شيئ يحول بالماء شرابا، يرد الجاحظ بأن الله تعالى سماه شرابا إذا كان يجيئ منه الشراب.

ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها، فقد خرج اللغة من بطونها وأجوافها. ومن حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلا ولا كثيرا. وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم. وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة وهذيلا وضواحي كنانة، وهؤلاء أصحاب العسل (الجاحظ، دون سنة: 425/5).

وقال ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن: "وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه وفهم مذهب العرب وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات" (قتيبة، 1973: 12).

وأول محور منهجي حدده الطبري في مقدمة تفسيره، معاناة رياضة العلوم العربية، يقول: "أن أول ما نبدأ به البيان عما في آي القرآن من المعاني التي من قبلها يدخل اللبس على من لم يعان رياضة العلوم ولم يستحكم معرفته بتعاريف وجوه منطق الألسن السليقة والطبيعية".

وعقد أحمد بن فارس في كتابه الصحابي بابا عنوانه: باب القول في حاجة أهل الفقه والفتاوى إلى معرفة اللغة العربية، قال فيه: "إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلم من العلم بالقرآن والسنة والفتاوى، حتى لا غناء بأحد منهم عنه، وذلك أن القرآن نازل بلغة العرب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عربي. فمن أراد معرفة ما في كتاب الله عز وجل وما في سنة رسول الله، من كلمة غريبة أو نظم عجيب، لم يجد من العلم باللغة بدا" (ابن فارس، 1977: 50). وأكد كذلك أن الغلط من جهة اللغة يظهر خطره فيما يغير به حكم الشريعة.

الطلب التشريعي عمدته العربية

رمزت اللغة باعتبارها لسان الوحي، وبتعدد مستويات الخطاب وتنوع أساليبه، جاء النص زاخرا بخصوبة المعاني وقوة الإيحاء.

والمعنى في هذا النص يرتبط بأمر عقدي أو تشريعي، ويأتي العلم بالعربية للكشف عن مراد الله، وتحديد شرع الله فأثيرت في الثقافة العربية مشكلة المعني وعلاقتها بالألفاظ الدالة عليها، وكان للأصوليين زيادة في مدارسة المعني وعلاقة اللفظ بالمعنى داخل عملية التفكير، إذ أن اللغة تعبير عن الفكر.

من هنا كان عناية الأصوليين بكيفية استنباط الأحكام من الكتاب والسنة من دلالات النصوص وسياقاتها، واحتلت المقدمة اللغوية من كتب الأصوليين مكانة خاصة واشتملت على أبحاث مطولة في تقسيمات اللفظ بالإضافة إلى المعنى، وعرضت في مجملها لقضايا المعنى وضبط القوانين في فهم النصوص.

وغاية الأصولي أن يستنبط حكما شرعيا من عبارة النص، أو إشارته واقتضائه وفحوه لضبط المعنى، ولا يتأتى له ذلك إلا بفهم ما تؤديه العبارة على مذاهب العرب في القول. لأنه كما قال الإمام الشافعي: "لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل لسان العرب" (الشافعي، دون سنة: 50).

وهو جهل يؤدي إلى تحريف مدلول النص وما يترتب عنه من تعطيل لمنهج الله، خاصة وأن في القرآن محكما ومتشابها، وفيهما درجات من الوضوح والغموض وأنماط من أساليب التجوز في التعبير.

ومن جهة المجاز، كما قال ابن قتيبة: "غلط كثير من الناس في التأويل وتشعبت بهم الطرق واختلفت النحل" (قتيبة، 1973: 103).

وهكذا، ففهم النصوص هو منطلق البحث عن الأدلة الشرعية والفهم موكول إلى المعرفة الدقيقة باللغة وبتصاريف القول فيها، إذ لا يتأتى استنباط حكم لا تقتضيه طبيعة اللغة.

فالمعنى الشرعي يؤخذ من الدليل اللفظي. وقد يستدل عليه بغير اللفظ لكن يظل اللفظ دالا على المعنى التابع لقصد المتكلم. فاللفظ في تصور الأصولي هو دليل الحكم على صحة الفكر أو خطئه، إذ اللغة ترجمة لما يجري في الفكر. من هنا أخذت اللغة عند الأصوليين منحنى علميا، أصبحت به وسيلة لاستنباط الحكم تتجه إلى الاصطلاح وتخاطب العقل. والإمام الشافعي في وضعه للأصول المعتمدة في فهم النصوص وتأويلها اعتمد منطق اللغة العربية.

وقد أورد السيوطي في صون الكلام في فن المنطق والكلام، قال: سمعت الشافعي يقول: ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطو، ولم ينزل القرآن ولا السنة إلا على مصطلح العرب ومذاهبهم في المحاورة والتخاطب والاحتجاج والاستدلال، لا على مصطلح اليونان، ولكل قوم لغة واصطلاح" (السيوطي، 1947: 45).

وهكذا يتضح أن المنهج في استنباط الحكم من النص أسس على منطق العربية. وابن خلدون وهو مؤرخ العلوم في الحضارة الإسلامية أطلق علوم اللسان العربي على علوم العربية وجعلها أركانا أربعة: اللغة والنحو والبيان والأدب. وقرر أن "معرفتها ضروري على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب وشرح مشكلاتها من لغاتهم، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة" (ابن خلدون، 1977: 1224/3).

وقد وجد ابن القيم من الأصوليين "من يفهم من الآية حكما أو حكمين ومنهم من يفهم عشرة أحكام أو أكثر من ذلك ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره، وأخص من هذا وألطف ضمه إلى نص آخر متعلق به، فيفهم من اقترانه به قدرا زائدا على ذلك اللفظ بمفرده، وهذا باب عجيب في فهم القرآن لا ينتبه له إلا النادر من أهل العلم".

واللفظ لدي الأصولي يتطور بناء على مدلوله وعلى استعمالاته في العرف والشرع مما يجعل النص منفتحا على الحياة يسمح بالاجتهاد.

خاتمة

إن التحكيم إلى النصين للإسلام هو الرجوع إلى القرآن والحديث، يظل ثابتا إلى نهاية العالم. منهما تستمد الحلول لمشكلات الحياة وما ينشأ عنهما من واقع وأحداث. من فهمهما وتدبرهما ينطلق الاجتهاد. من هنا تظل العناية بعلوم العربية ثابتة في مسار الحضارة الإسلامية.

ومن تلك العناية نتمكن من الاجتهاد. إن العالم الإسلامي أوجد أضخم مادة قانونية في الفقه لكل جوانب الحياة الإنسانية. حينما تفهم النص الشرعي ودقق في تحديد مدلولات ألفاظه مع وعي كامل بطبيعة التطور الدلالي فكان له علم بالعربية وبأسرارها.

واليوم تسود القوانين الوضعية في العالم، وبتأخر المسلمين يتأخر فقه المعاملات عن متابعة ما يجد في حياة الناس. إن العالم يتطور من حولنا بسرعة مذهلة ويزيدنا النظام العالمي الجديد استضعافا في الأرض ويحكم إقفال باب الاجتهاد عندنا وتزداد النفوس إحباطا ودمارا.

إن السيادة اليوم في الأرض لا تتأتى بغير البحث العلمي في مجالات المعرفة الحديثة. والاجتهاد لا يتحقق بغير انفتاح على تطورات العصر ومواكبتها معرفيا. وأمر اللغة العربية اليوم موكول إلى وضعية العرب والمسلمين سياسيا واقتصاديا وثقافيا. وكل إصلاح يهمل علوم العربية، ولا يدخلها في معترك الحياة بتطوراتها العلمية يترك باب الاجتهاد موصدا ويحكم على الحضارة الإسلامية بالجمود.☑

المراجع

ابن خلدون، عبد الرحمن. 1977. *مقدمة*. القاهرة: دار النهضة للطباعة.

ابن فارس، أحمد. 1977. *الصحابي*. القاهرة: مكتبة عيسى الحلبي.

الأنباري، أبو بكر. 1976. *إيضاح الوقف والإبداء*. بيروت: دار التراث.

الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون. بدون سنة. *الحيوان*. مصر: دار مصطفى الحلبي.

الجوزية، ابن قيم. بدون سنة. *أعلام الموقعين*. القاهرة: إدارة الطباعة المنيرية.

خليل، أحمد. 1968. *المدخل إلي دراسة البلاغة العربية*. بيروت: دار النهضة العربية.

السيوطي، جلال الدين. 1947. *صون الكلام عن فن المنطق والكلام*. القاهرة: مطبعة السعادة.

الشافعي، إدريس. بدون سنة. *الرسالة*. القاهرة: دار الكتب العربي.

عبد الغفار، أحمد. 1981. *التصور اللغوي عند الأصوليين*. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

عبيدة، أبي. بدون سنة. *مجاز للقرآن*. القاهرة: الطبعة الحسينية.

قتيبة، ابن. 1973. *تأويل مشكل القرآن*، تحقيق أحمد شاكر. مصر: دار التراث.